السِّيرةُ المُيَسَّرة لنبي الرحمة محمد ﷺ

ح دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع الرياض ١٤٢٨هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخرعان، عبدالله بن عبدالرحمن زيد
السيرة الميسرة لنبي الرحمة محمد ﷺ / د. عبدالله ابن عبدالرحمن زيد الخرعان - الرياض ١٤٢٨هـ.
٢٥٤ صفحة ١٧×٢٤سم
ردمك: ٦-٢٤٣-٥٨-٩٩٦٠-٩٧٨

١. سيرة النبوية أ. العنوان
ديوي ٢٣٩ ١٤٢٨/٤٨٣٤

رقم الإيداع: ١٤٢٨/٤٨٣٤
ردمك: ٦-٢٤٣-٥٨-٩٩٦٠-٩٧٨

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع

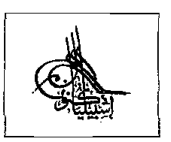

المملكة العربية السعودية ص.ب ٢٧٢٦١ الرياض ١١٤١٧
هاتف: ٤٧٤٢٤٥٨- ٤٧٧٣٩٥٩ - ٤٧٩٤٣٥٤ فاكس: ٤٧٨٧١٤٠
E-mail: eshbelia×hotmail.com

السِّيرةُ المُيَسَّرة

لنبي الرحمة محمد ﷺ

تأليف

د. عبد الله بن عبد الرحمن الخرعان

عضو هيئة التدريس بقسم التاريخ والحضارة

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

١٤٣٠هـ

دار كنوز إشبيليا

للنشر والتوزيع

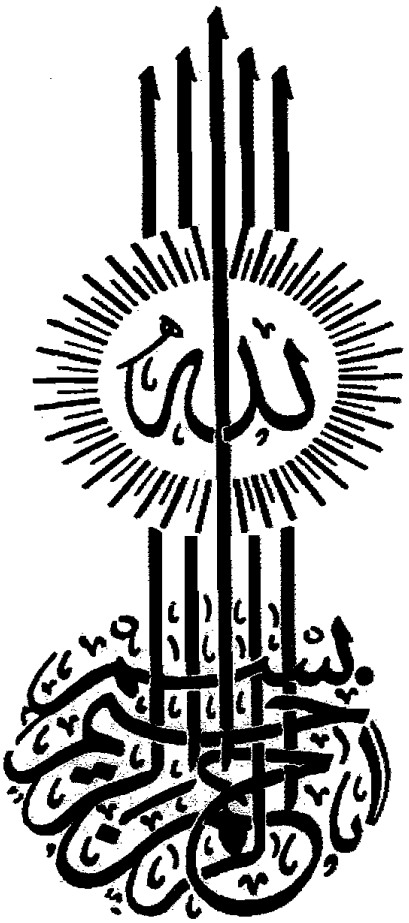
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي اصطفى من عباده رسلاً يهدونهم سبل السلام، ويخرجونهم من الظلمات إلى النور، القائل: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١]. أحمده وأثني عليه أن هدانا صراطه المستقيم، وجعلنا مسلمين، وأصلي وأسلم على من بعثه الله رحمة للعالمين وبعد:

فلما أراد الله أن يكون نبيه محمد ﷺ أسوة حسنة لجميع البشرية هيأه لذلك، فجاءت سيرته شاملة شمول دين الإسلام، وكاملة كمال شريعته، وعامة عموم رسالته لكل عصر ومصر. فسيرة كهذه جديرة بالاهتمام والتأمل.

ولا يملك من يطلع على سيرة الحبيب المصطفى ﷺ ويتمعن في أحداثها ـ من المسلمين ـ إلا أن تحرك الإيمان في قلبه، وتأجج عواطف الحب فيه تجاه نبيه العظيم وصحابته الكرام، كما يورث ذلك ـ عند غير المسلمين ـ دواعي الإعجاب والتقدير لهذا النبي العظيم وصحابته الكرام، على ما بذلوه من جهد لإقامة الدين الحق، وإنقاذ البشرية الحائرة.

وجوانب السيرة النبوية متعددة تتعذر الإحاطة بها في كتاب مهما كبر حجمه؛ لذا فليس من المؤمل أن يُلِمّ هذا الكتاب بجميع تلك الجوانب، ولكن آمل أن يكون قد اشتمل على قدر منها بما يعطي المطلع عليه صورة صادقة عن تلك السيرة العطرة، ودافعاً للاستزادة من نبعها العذب، وحافزاً على مواصلة القراءة لأحداثها واستلهام العبر النافعة منها.

وقد حاولت أن أقدم سيرته ﷺ بعرض يختلف عما دأب عليه كتاب السيرة النبوية من سرد أحداثها وفق السنين، فقد قمت بعرض أحداث السيرة النبوية بعد الهجرة بحسب مواقف القوى المعادية للإسلام آنذاك، ليدرك القارئ حجم كل قوة من تلك القوى، وتنوع أساليبها في مواجهة الإسلام، كما حرصت في الحديث عن شمائل الرسول ﷺ على إبراز تعامله مع أعدائه، وهو ما يحتاج المسلمون اليوم إلى تبيينه، لاسيما الناشئة منهم، حتى لا تشط بهم الأفكار المنحرفة عن الهدي النبوي في ذلك.

هذا وقد قدمت المادة العلمية وفق المنهج العلمي الموثق، فاعتمدت على الروايات الصحيحة والمصادر الموثوقة في ذكر أحداث السيرة التي يتأكد فيها الاعتماد على الصحيح من الروايات، وقد آثرت الإيجاز وتحاشيت التفصيل في سرد الأحداث، وقد ضمنت الكتاب عددا من الخرائط والجداول الموجزة للأحداث التي تصل حلقات الأحداث وتغني عن التفصيل، وحاولت أن أقف عند بعض الأحداث المهمة لاستلهام الدروس، واستخلاص العِبر.

ويأتي صدور هذا الكتاب في الوقت الذي يواجه الإسلام حملات مغرضة لتشويه صورته للصد عنه، وفي الوقت الذي أظهرت بعض المؤسسات والأفراد في الغرب صوراً مسيئة لنبي الهدى ﷺ، أملتها عليهم أحقادهم على الإسلام ورسوله الكريم، فأعمتهم عن الوصول لحقيقة سيرة هذا النبي العظيم وسمو رسالته.

كما يأتي صدور هذا الكتاب - أيضاً - في الوقت الذي جفا كثير من أبناء الإسلام سنة نبيهم، وأشغلهم الافتتان بحضارة الغرب المادية عن إدراك ما في دينهم من مظاهر العَظَمة والفوز في الدنيا والآخرة لو كانوا يعلمون.

لذا آمل أن يسهم هذا الكتاب في الرد على أولئك الحاقدين، ويكشف الحقيقة للحائرين، ويسهم في تبصرة أبناء المسلمين بمظاهر العظمة في سيرة نبيهم ورسالته، ما يحملهم على الاعتزاز بدينهم و التمسك به.

هذا، وقد حاولت أن أقدم مادة هذا الكتاب بأسلوب سهل ميسّر يتناسب مع مختلف الأعمار والمستويات، وسميته "السيرة الميسّرة لنبي الرحمة". فأرجو أن يحقق الغرض المرجو منه، والله أسال أن يخلص النية، ويصلح العمل، ويسدد الخطى، ويجمعنا بحبيبنا المصطفى ﷺ في دار السلام، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

د. عبدالله بن عبدالرحمن الخرعان

a_a_kh_78 xhotmail.com.

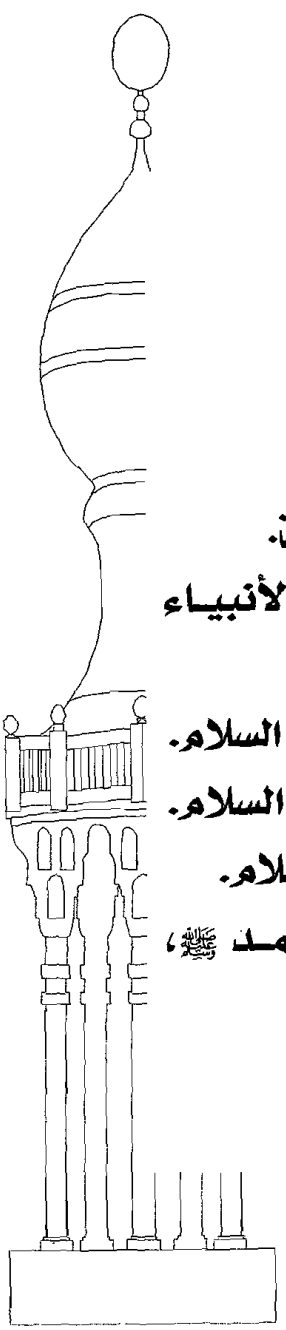

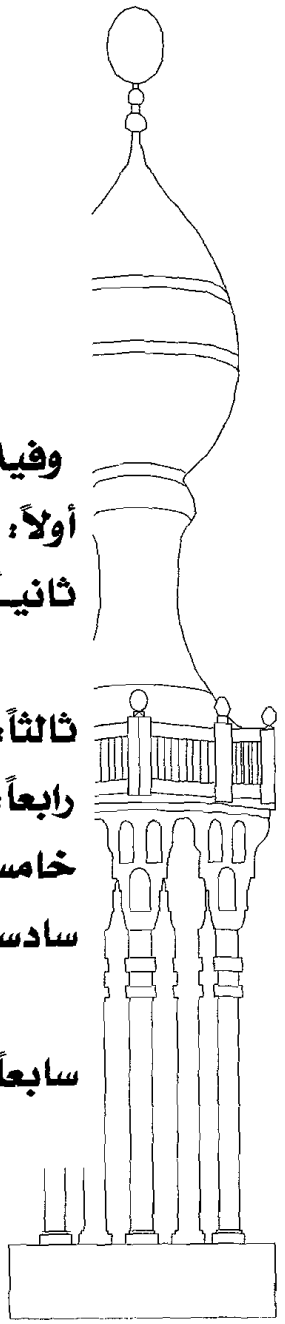

الفصل الأول

مداخل عامة

وفيه:

أولاً: أهداف دراسة السيرة النبوية.

ثانياً: حاجة البشر إلى بعثة الأنبياء عليهم السلام.

ثالثاً: مضمون دعوة الأنبياء عليهم السلام.

رابعاً: واجبنا تجاه الأنبياء عليهم السلام.

خامساً: تفاضل الأنبياء عليهم السلام.

سادساً: أهمية سيرة النبي محمد ﷺ، ومظاهر تميزها.

سابعاً: مصادر السيرة النبوية.

أولاً: أهمية دراسة السيرة النبوية:

من خلال دراسة سيرة نبينا وحبيبنا ﷺ يمكننا تحقيق عدد من الفوائد العظيمة والأهداف النبيلة ومن أهمها ما يلي:

[١] تحقيق الاقتداء برسول الله ﷺ الذي أمرنا به الله في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[١] وكذلك تحقيق إتباعه الوارد في قوله ﷺ: (لا يُؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)[٢] وهذا وذاك لا يتحقق إلا بمعرفة سيرته ﷺ والوقوف على هديه في جميع أحواله.

[٢] تحقيق محبة المسلم لربه عز وجل التي علقها الله باتباع رسوله ﷺ بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣] واتباع الرسول ﷺ - كما سبق - لا يتحقق إلا بالوقوف على هديه وسنته من خلال معرفة سيرته ﷺ.

[٣] تحقيق محبة الرسول ﷺ التي لا يكمل إيمان المسلم إلا بها كما جاء في قوله ﷺ: (لَا يُؤْمِنُ أحدكم حتى أَكُونَ أَحَبَّ إليه من وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)[٤] و من مقتضى محبته السير على هداه وهذا لا يتحقق إلا بالتعرف على سنته وأعماله، كما أن الوقوف على ما بذله الرسول ﷺ في سبيل تبليغ رسالة ربه و الدعوة إلى الإسلام، وما تعرض في سبيله من محن وابتلاءات حتى أظهر الله به الدين وأنار به دروب الهدى للسالكين إلى يوم الدين، كل ذلك يورث محبة الرسول ﷺ وإدراك فضله على العالمين.

[٤] الوقوف على تطبيق أحكام الإسلام والتخلق بأخلاقه، من خلال والوقوف على الواقع العملي للمصطفى ﷺ بالتعرف على أعماله وأحواله وتعامله ﷺ.

[٥] زيادة الإيمان في نفس المؤمن بالاطلاع على دلائل نبوته ومعجزاته ﷺ.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية [٢١].

(٢) قال النووي في الأربعين النووية: «هذا حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح».

(٣) سورة آل عمران، الآية [٣١].

(٤) متفق عليه.

[٦] تثبيت المؤمنين وتسليتهم في سبيل ما يعترضهم من محن وابتلاءات في حياتهم الشخصية أو في سبيل تطبيقهم للإسلام ودعوة الناس إليه، فسيرته وحياته ﷺ مليئة بالدروس والعبر في هذا المجال.

[٧] الوقوف على ما بذله الصحابة الكرام رضي الله عنهم من مؤازرة للنبي ﷺ ونصرة لدين الله، وما قدموا في سبيل ذلك من تضحيات كبيرة بصورة لم يشهد لها تاريخ البشرية مثيل، وهذا ما جعلهم يستحقون أن يكونوا خير القرون على الإطلاق، كما جاء عن المصطفى ﷺ في قوله: (خَيْرُ النـاس قَرْنِي.)[1] وهذا يستدعي محبتنا لهم والترضّي عنهم والسير على خطاهم.

[٨] الوقوف على صور من الإيمان الحيّ عندما يخالط قلوب البشر؛ فيحولهم إلى أناس غير عاديين في وضوح أهدافهم، وعلو هممهم، وتدفق عواطفهم، وسمو غاياتهم، وعظيم تضحياتهم. وهذا جعلهم - وإن مشوا على الأرض - في اتصال مع الله والملأ الأعلى، فمنهم من اهتز عرش الرحمن لموته، وشاركت الملائكة في تشييع جنازته، ومنهم من نزلت الملائكة لتغسيله حين مات، وآخر تتنزل الملائكة لتسمع ترنمه بالقرآن، ومنهم من يأتي لأجله جبريل عليه السلام إلى محمد ﷺ ليبلغه السلام من ربه، ولم يكن لهم ذلك إلا حين خالط الإيمان الحيّ قلوبهم، وهذا بدوره يحرك عواطف الخير في المؤمن، ويزيد إيمانه إيماناً، ويعمل عمله في قلب غير المؤمن فيدفعه إلى طريق الإيمان.

[٩] دراسة السيرة النبوية خير معين على فهم كتاب الله وسنة رسول الله، من خلال فهم الآيات والأحاديث التي لها صلة بأحداث السيرة ووقائعها.

[١٠] بيان ما كان يتمتع به رسول الله ﷺ من الأخلاق الكريمة، من خلال الوقوف على تعامله مع غيره ابتداء بتعامله مع ربه، ثم تعامله مع سائر البشر من حوله من ذوي قربى،وأصحاب، وخدم، بل حتى مع أعدائه وحرصه على هدايتهم، وحتى مع الحيوان والرفق به، وغير ذلك مما جعله يستحق شهادة الله له بحسن الخلق في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2].

---

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري.

(٢) سورة القلم، الآية [٤].

ثانياً: حاجة البشر إلى بعثة الأنبياء والرسل:

بعث الله الأنبياء عليهم السلام إلى الناس لغايات عظيمة، وأهداف سامية، من أهمها:

[١] تعريف البشر بخالقهم، والحكمة من وجودهم:

إن أرباب العقول المتأملين في هذا الكون العظيم، بأرضه، وسمائه، وأفلاكه، وما فيه من أحياء، وما يحويه من آيات عظيمة، يدركون أن له خالقاً عظيماً، ومدبّراً حكيماً، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]. ولكنهم لا يدركون صفات هذا الخالق، ولا يعرفون حقيقته؛ إذ ليس بمقدور عقولهم معرفة ذلك، وإدراكه بالتفصيل. ولقد ضلّ من أراد التعرف على الله، أو وصفه باجتهاد منه. فهناك من قال بوحدة الوجود، وهناك من يزعم بأن الطبيعة هي المتصرفة بنفسها، وهناك من جعل لله ولداً، وهناك من يعتقد في بعض المخلوقات النفع أو الضر، كالنور أو الظلام، وغير ذلك من الانحرافات. لذا كان لابد من إرسال الرسل؛ لتعريف البشر بخالقهم، وتعليمهم صفاته، كما جاءت عنه سبحانه وتعالى.

وكما كان البشر بحاجة إلى الرسل لتعريفهم بخالقهم، فهم أيضاً بحاجة لبيان الهدف، والحكمة، من خلقهم في هذه الحياة، وهو عبادة الله، والسير على صراطه المستقيم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2].

[٢] الإخبار بالغيبيات وأحداث الدار الآخرة:

هناك من ينكر الحياة بعد الموت، ويرى أن الموت هو نهاية الأحياء، كما قال الله عن هؤلاء: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[3]. وهناك من يدرك بفطرته السليمة أن هناك حياة

---

(١) سورة لقمان، الآية [٢٥].

(٢) سورة الذاريات، الآية [٥٦].

(٣) سورة الجاثية، الآية [٢٤].

أخرى بعد الموت، ولكن هؤلاء لا يعلمون تفاصيل هذه الحياة، لأن أخبارها من أمور الغيب، التي لا يدركها العقل، ولا يمكن التوصل إليها إلا بالنقل الصحيح ممن يعلمها، وهو الله. والرسل هم المخبرون عن الله في ذلك. فهم يبشرون من يعبد الله على حق بالنعيم في الجنة، وينذرون المخالفين لأمر الله بالعذاب الأليم في النار، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[1].

[٣] تصحيح الانحرافات التي تطرأ على البشر:

عندما تطول المدة بعد موت الأنبياء والرسل؛ تتعرض الشرائع التي جاؤوا بها إلى التحريف، ويبدأ الضلال يسري في أممهم؛ فيعم الجهل، ويحل الشرك محل الدين الصحيح؛ فيحتاج الأمر إلى إرسال رسل، يردون البشر إلى جادة الصواب، ويصححون الانحرافات، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا؛ فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين[2] كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3].

ودخل الشرك في حياة الناس حين لبّس الشيطان على بعض بني آدم، واستدرجهم إلى الشرك، وعبادة ما سوى الله. وذلك أنه كان هناك قوم صالحون بين

(١) سورة الأنعام، الآيتان [٤٨-٤٩].

(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ٣٦٤. رواه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح. ولم يخرجاه.

(٣) سورة البقرة، الآية [٢١٣].

آدم ونوح، اشتهروا بالصلاح وكثرة العبادة، فجاء بعدهم قوم يقتدون بهم في العبادة، فأوحى لهم إبليس: لو صورتموهم صوراً، تذكركم بهم، وعبادتهم؛ فيزيدكم ذلك نشاطاً في العبادة،كلما نظرتم لهم. ففعلوا. فلما ماتوا نشأ قوم من بعدهم، فأوحى لهم إبليس: بأن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم، فعبدوهم، فبدأ بذلك الشرك.[1]

فنوح عليه السلام أول رسول بعد حدوث الشرك في ذرية آدم، ثم تتابع إرسال الرسل والأنبياء،[2] كل نبي يبعث في قومه، وربما بعث أكثر من نبي ورسول في عصر واحد، كموسى وهارون عليهما السلام، وإبراهيم ولوط عليهما السلام، حتى كان آخرهم وخاتمهم نبينا محمد بن عبد الله ﷺ.

[٤] حاجة البشر إلى بعض الشرائع لضبط حياتهم:

يحتاج البشر في حياتهم إلى بعض الضوابط، التي توفر لهم سبل العيش الآمن السعيد، وتحقق لهم العدل والمساواة في تعامل بعضهم مع بعض، اجتماعياً واقتصادياً، وهذا ما تضمنته الشرائع التي جاء بها الرسل. فنجد بعض الرسل يركز في دعوته لقومه - بعد اهتمامه بالتوحيد - على إصلاح جانب من جوانب الحياة، قومه بحاجة إليه،كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3].

---

(١) انظر: حول بداية الشرك في ذرية آدم: الشوكاني: فتح القدير: ٥/ ٣٠٠: الألوسي: روح المعاني: ٢٩: ٧٧.

(٢) أصح ما قيل في الفرق بين الرسول والنبي: أن الرسول من أرسل بشريعة جديدة، وأنزل معه كتاب، وأما النبي فهو من بعثه الله ليدعو إلى شريعة من قبله. انظر: كتاب النبوات لابن تيمية: ٢٥٥، تفسير أضواء البيان للشنقيطي: ٥/ ٧٣٥.

(٣) سورة الأعراف، الآية [٨٥].

ثالثاً: مضمون دعوة الأنبياء:

يشترك جميع الأنبياء والرسل في الدعوة إلى التوحيد الخالص لله تعالى، فهو أول ما دعوا إليه أقوامهم، وأمضوا مدة رسالاتهم مجتهدين في ترسيخ معانيه في حياة أممهم. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[2]، وقال: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[3].

والتوحيد الذي دعا إليه الأنبياء هو توحيد الألوهية: وهو إفراد الله بالعبادة[4]. وهذا التوحيد متضمن لأنواع التوحيد الأخرى، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «التوحيد الذي جاءت به الرسل إنما يتضمن إثبات الإلهية لله وحده، بأن يشهد أن لا إله إلا الله، فلا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلاّ عليه، ولا يوالي إلا له، ولا يعادي إلا فيه، ولا يعمل إلا لأجله. وذلك يتضمن ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات، قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾[5]. ومما يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٣ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ

---

(١) سورة الأنبياء، الآية [٢٥].

(٢) سورة النحل، الآية [٣٦].

(٣) سورة فصلت، الآية [١٤].

(٤) العبادة كما عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال، مثل: الدعاء، والخوف، والحب، والرجاء، والنذر، والذبح، والتوكل، والاستعانة، إلى غير ذلك من العبادات، التي يجب أن تكون كلها خالصة لله عز وجل. (فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: ص ١٤

(٥) سورة البقرة، الآية [١٦٣]. وانظر كلام ابن تيمية في فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: ١٢،١٣.

ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1] ،وورد في كثير من الآيات أن الرسل كانوا يفتتحون دعوتهم لأقوامهم بهذا التوحيد، بقولهم: ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[2]».

ويؤكد الرسول المصطفى ﷺ اشتراك الأنبياء كلهم في دعوة أقوامهم إلى التوحيد، بقوله: **(إنا معشر الأنبياء ديننا واحد)**[3].

وهذا التوحيد هو الذي فطر الله الناس عليه، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[4]، وقول الرسول ﷺ: **(يقول الله عز وجل: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم)**[5]،وكما قال ﷺ: **(كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه)**[6]. وكانت البشرية على هذا التوحيد منذ أن نزل آدم على الأرض، وأخذته منه ذريته جيلاً بعد جيل، واستمروا عليه عشرة قرون، كما سبق ذكره.

رابعاً: واجبنا تجاه الأنبياء عليهم السلام:

كما يجب علينا أن نؤمن بجميع الأنبياء والرسل الذين ذكرهم الله في القرآن[7]، والذين لم يذكرهم، ويقتضي الإيمان بهم أن نقدرهم ونحترمهم ولا نفرق - في الإيمان - بين أحد منهم، فلا نجحد نبوة أحد منهم، لقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان [١٦٢- ١٦٣].

(٢) سورة الأعراف، الآيات [٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥]، وسورة هود، الآيات [٥٠، ٦١، ٨٤].

(٣) فتاوى ابن تيمية ١/ ٣٥٧.

(٤) سورة الروم، الآية [٣٠].

(٥) صحيح مسلم: كتاب الجنة:٨/ ١٥٨، ١٥٩.

(٦) صحيح البخاري: كتاب الجنائز:٣/ ١١٨، صحيح مسلم: كتاب القدر: ٨/ ٥٢، ٥٣.

(٧) وعددهم خمسة وعشرون هم: آدم، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وشعيب، وأيوب، وذو الكفل، وموسى، وهارون، وداود، وسليمان، وإلياس، واليسع، ويونس، وزكريا، ويحيى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[1]. ولكن ليس لنا أن نتبع سوى شريعة خاتمهم محمد بن عبدالله ﷺ؛ لأن شريعته ناسخة لجميع الشرائع التي جاء بها الأنبياء والرسل من قبله. لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[2] وقوله ﷺ: (والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار)[3].

خامساً: تفاضل الأنبياء:

يتفاضل الأنبياء عليهم السلام في الدرجة، والمنزلة، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾[4]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[5]، وأفضلهم على الإطلاق محمد ابن عبدالله ﷺ؛ لأن الله اصطفاه واختاره ليختم به أنبياءه، ويجعل دينه أكمل الأديان، وأعظمها، لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[6]، وقوله ﷺ: (فضلتُ على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلّت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً

(١) سورة البقرة، الآية [٢٨٥].

(٢) سورة آل عمران، الآية [٨٥].

(٣) صحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ: ١/ ٢٤٠.

(٤) سورة البقرة، الآية [٢٥٣].

(٥) سورة الإسراء، الآية [٥٥].

(٦) سورة الفتح، الآية [٢٨].

ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون)[1] وقوله ﷺ: (أنا سيد الناس يوم القيامة)[2].

وعلى الرغم من أن نبينا محمد ﷺ آخر الأنبياء إلا أن ذكره وفضله قد شاع، وسبق ظهوره. فقد ورد ذكره وفضله على لسان بعض الأنبياء، وذُكر في بعض الكتب السماوية، كالتوراة والإنجيل، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[3]، ومن ذلك حديث أبي أمامة رضي الله عنه حين قال: قلت يا نبي الله ما كان أول بدء أمرك؟ قال: (دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورأت أمي نوراً أضاءت منه قصور الشام)[4]. ودعوة إبراهيم هي التي ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[5]، وبشارة عيسى هي ما ورد في القرآن الكريم على لسانه في قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[6].

---

(١) صحيح مسلم: كتاب المساجد / ٥.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأنبياء / ٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية [١٥٧].

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ٥/ ٢٦٢، والطبراني في المعجم الكبير:٧٧٢٩ ، والبيهقي في الدلائل: ١/ ٨٤، وابن سعد في الطبقات: ١/ ١٠٢. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ٨/ ٢٢٢: إسناد أحمد حسن وله شواهد تقويه. ولمزيد من تخريج هذا الحديث وشواهده انظر: صحيح السيرة النبوية لإبراهيم العلي: ٢٥.

(٥) سورة البقرة، الآية [١٢٩].

(٦) سورة الصف، الآية [٦].

سادساً: تميز سيرة النبي محمد ﷺ عن سير غيره:

شهد تاريخ البشرية منذ القدم- ولا يزال يشهد- عدداً من بني البشر، الذين برزوا في مجتمعاتهم، وعلا ذكر سيرهم بين أقوامهم،كالملوك العادلين، والقادة الأبطال، والزعماء المصلحين، أو الشعراء المبدعين، وأرباب الفكر والاختراع، وغيرهم، ممن اشتهر لدى العامة ذكر سيرهم، وبرزوا على مسرح التاريخ. ولكن هناك طائفة من بني البشر غير هؤلاء، ذكرهم أشرف، وسيرهم أعظم وأعم نفعاً، ذلكم هم الأنبياء. ذلك لأن عظمة سير غيرهم من بني البشر تبدو في جانب، أو جوانب، محدودة الأثر والنفع في حياة البشر، بينما سير الأنبياء والرسل تكون أعم نفعاً، وأشمل أثراً في حياة البشر، وعلى مدى الزمن؛ حيث اختارهم الله واصطفاهم لهداية البشر، وجعل حياتهم نبراساً لأقوامهم، ينير لهم الطريق في هذه الحياة، في جوانبها المختلفة، وجعلهم محلاً للاقتداء، كما قال تعالى بعد ذكر عدد من الأنبياء: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾[1]. نعم لقد كانت سير الأنبياء أكمل السير في حياتهم، وبين أقوامهم؛ وبعد مبعث النبي محمد بن عبد الله ﷺ أصبحت سيرته أكمل سير الأنبياء، وأعظمها، وهي السيرة الوحيدة - من بين سير الأنبياء - الصالحة للاقتداء إلى قيام الساعة، وجاء تميز سيرته نبي الرحمة ﷺ من عدة وجوه، نذكر أهمها:

[1] تكامل حلقاتها، ودقة تفاصيل أطوارها، من الولادة حتى الوفاة:

تعد سيرة المصطفى ﷺ السيرة الوحيدة - من بين سير الأنبياء - من حيث: تكامل حلقاتها، ووضوح أطوارها، منذ ولادته حتى وفاته، وتفاصيل أحداثها مدونة معلومة، في جميع مراحل عمره. أما غيره من الأنبياء فيكتنف سيرهم الغموض، في عدد من مراحل حياتهم. فهناك من الأنبياء من لا نعرف عنهم شيئاً إلا أنّ الله أرسلهم: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ

(١) سورة الأنعام، الآية [٩٠].

مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾[1]. أما الذين ذكرت أسماؤهم في القرآن، فمنهم من لا نعرف عنه إلا الاسم، والكثير منهم لا نعرف من سيرهم إلا حوارهم لأقوامهم، ومعجزاتهم التي أيدهم الله بها. وحين نتبين سيرة كل من موسى وعيسى عليهما السلام بحكم أن سيرتهيما أشهر سير الأنبياء قبل نبينا محمد عليهم السلام، فسنجد أن موسى عليه السلام ـ وهو أشهر رسول لبني إسرائيل، والذي أنزلت عليه التوراة، وأكثر الأنبياء السابقين ذكراً في القرآن الكريم ـ سنجد أن كثيراً من أطوار سيرته مجهول. فنحن لا نعرف عنه إلا مولده والظروف التي أحاطت به، وعيشه في أول عمره في بيت فرعون، ثم هجرته إلى مدين، وزواجه فيها، ومكثه بها عشر سنين، لا نعلم تفاصيل سيرته خلالها، ثم عاد إلى مصر، وفي الطريق أوحى الله إليه، وعاد إلى مصر ليدعو فرعون وملأه، وليرفع عن قومه- بني إسرائيل- ظلم فرعون. وقد بين الله تفاصيل الحوار بين موسى وفرعون، والمعجزات، والآيات، التي لم ينتفع بها فرعون وملأه، ثم هلاك فرعون وملئه، ونجاة بني إسرائيل. ولهذا فإن هناك حلقات مجهولة في سيرة موسى عليه السلام، وفترات غامضة من حياته، اشتملت على كثير من أخلاقه، وعبادته، وتعامله مع من حوله، وغير ذلك مما هو فيه محل الاقتداء، لكننا لا نعلم عنها شيئاً.

أما عيسى عليه السلام، فيقول في شأن سيرته علاّمة الهند في عصره، السيد سليمان الندوي رحمه الله: «ومن أقرب الرسل عهداً بالإسلام عيسى عليه السلام، الذي يزيد عدد المنتسبين إليه- بحسب إحصاءات الأوربيين- على عدد الديانات الأخرى، وإن المرء ليستغرب حين يعلم أن شؤون حياته، وأحوال معيشته، أخفى من غيره وأغمض، وقد أسدل الزمان عليها حجاباً، أكثف مما نراه في حياة العظماء الآخرين من الرسل، الذين يعدون من أصحاب الأديان المشهورة». ثم قال: «إن عيسى عليه السلام عاش في هذه الدنيا ثلاثاً وثلاثين سنة، كما يروي الإنجيل، والأناجيل الموجودة في الأيدي - على ما في رواياتها من ضعف ولبس - مقصورة على ذكر أحواله لمدة ثلاث

(١) سورة النساء، الآية [١٦٤].

سنوات، في أواخر حياته وحسب. فنحن لا نعلم عن حياته علم اليقين إلا أنه ولد، وجيء به إلى مصر، وأراه الله آية أو آيتين في صباه، ثم غاب عن الناس، وظهر لهم وهو في الثلاثين من عمره... فأين قضى عيسى عليه السلام الثلاثين أو الخمس وعشرين على الأقل من حياته ؟ وفيم قضاها ؟ وبأي الأعمال شغل هذا الفراغ الواسع من عمره ؟ إن الدنيا لا تعلم عن ذلك شيئاً، ولن تعلم..»[1].

أما سيرة نبينا محمد ﷺ، فقد دونت بتفصيل دقيق، وبيان واضح، منذ ولادته وحتى وفاته، بشكل لم يحدث من قبله ولا من بعده. حيث دون فيها أقواله، وأفعاله، وابتساماته، وحتى سكونه وصمته، حال إقامته وسفره، وفي سلمه وجهاده، وفي منزله وخارجه.

وقد أجبرت هذه الميزة الكبيرة لسيرة المصطفى ﷺ غير المسلمين على الاعتراف بها. فقد كتب (جون ديون بورت) في مقدمة كتابه عن السيرة المحمدية سنة ١٨٧٠م وعنوانه "الاعتذار من محمد والقرآن"، قال في مقدمته: «لا ريب أنه لا يوجد في الفاتحين، والمشرعين، والذين سنّوا السنن، من يعرف الناس حياته، وأحواله، بأكثر تفصيلاً، وأشمل بياناً، مما يعرفون من سيرة محمد وأحواله»[2].

ويقول الإنجليزي با سورث سميث: «.. لا شك أن في الوجود شخصيات لا نعلم عنها شيئاً، ولا نتبين حقيقتها أبداً، أو تبقى منها أمور مجهولة. بيد أن التاريخ الخارجي لمحمد ﷺ نعلم جميع تفاصيله، من نشأته إلى شبابه، وعلاقته بالناس، وروابطه، وعاداته، ونعلم أول تفكيره، وتطوره، وارتقاءه التدريجي، ثم نزول الوحي العظيم عليه نوبة بعد نوبة، ونعلم تاريخه الداخلي بعد ظهور دعوته، وإعلان رسالته..»[3].

---

(١) سليمان الندوي: الرسالة المحمدية: ٥٧، ٥٨. وعن حياة عيسى عليه السلام واختفائه انظر الأمم والملوك للطبري: ١/ ٥٩٣ وما بعدها.

(٢) نقلا عن سليمان الندوي: الرسالة المحمدية: ٩٨.

(٣) المرجع السابق: ١٢١.

[٢] صحة نقلها وثقة مصدرها:

إن مما يميز سيرة نبينا محمد ﷺ - بالإضافة إلى ما سبق - وصولها إلينا بطرق صحيحة، ومن مصادر بلغت أعلى درجات الثقة والصدق. فمن أهم مصادر سيرته ﷺ: القرآن الكريم؛ حيث ورد فيه جزء كبير من سيرته ﷺ، اشتمل على أوصافه، وأخلاقه، وأطوار دعوته، ووصف بعض معاركه، ومواقف أعدائه من دعوته، وكيف تعامل معهم.

والمصدر الثاني للسيرة النبوية كتب السنة النبوية. وقد دونت السنة النبوية بطريقة فريدة، لم تدون بها سيرة نبي قبله. فما وصل من سيرة موسى وعيسى عليهما السلام لم يدّون إلا بعد مفارقتهما لهذه الحياة. فالتوراة لم تدون إلا بعد موسى بقرون[١]، مما جعلها تتعرض لكثير من التحريف، ودخلها أراء كثير من الكتاب، وبسبب ذلك وقع فيها بعض التناقض. أما الأناجيل فقد دونت بعد رفع عيسى عليه السلام بأكثر من ستين سنة، وتجهل اللغة التي دونت بها، ومن قام بترجمتها، كما دخل التحريف كثيراً من هذه الأناجيل، بعد عدة قرون، على أيدي القساوسة والملوك.

أما سنة نبينا محمد ﷺ فقد دونت في حياته بطريقتين:

الطريقة الأولى: الحفظ المتقن:

حيث تخصص مجموعة من الرواة المؤمنين الصادقين بملازمة الرسول ﷺ، وأوقفوا حياتهم، وفرغوا أذهانهم، لحفظ كل ما يصدر عنه من قول أو فعل أو تقرير، بل حتى وصف أحواله، من تبسمه، ومشيته، وصمته، وغير ذلك. وذلك في سفره وإقامته، بل حتى في بيته[٢]. وقد اشتهر العرب قبل الإسلام بقوة الحفظ، واعتنوا به عناية كبيرة، فاعتمدوا عليه في حفظ تاريخهم، وأشعارهم، وأنسابهم.

---

(١) محمود شاكر: السيرة النبوية: ٣٠.

(٢) وأهم هؤلاء الرواة رضي الله عنهم: أبو هريرة، وروى (٥٣٧٤) حديثاً، وعبدالله بن عباس (٢٦٦٠) حديثاً، وأم المؤمنين عائشة (٢٢١٠) أحاديث، وعبد الله بن عمر (١٦٣٠) حديثاً، وجابر ابن عبدالله (١٥٦٠) حديثاً، وأنس بن مالك (١٢٨٦) حديثاً، وأبو سعيد الخدري (١١٧٠) حديثاً.